وكان هذا آخر العهد بتدخل الصقالبة فى سير الحوادث الأندلسية بصورة بارزة . ومن ذلك الحين يختفون من ميدان الشؤون الأندلسية كقوة فعالة لها أثرها الحاسم فى توجيه الحوادث ، ومن ذلك الحين يبزغ نجم البربر ؛ وتتحول المعركة الداخلية الى نضال مزدوج ، نضال ملوك الطوائف فيما بين أنفسهم ، ثم نضالهم ضد العدو المشترك أعنى أسبانيا النصرانية ؛ ثم يجىء دور البربر فى السيادة المطلقة بسرعة ، فتنهار دول الطوائف الصغيرة تحت ضرباتهم القوية ، وتسقط الأندلس فى يد المرابطين ثم يفتتحها الموحدون ، فتستمر سيادة البربر عصراً آخر ؛ ثم تنهض مملكة غرناطة فى تلك القفار والخطوب العصيبة فتستطع فى الأندلس حتى يحل الصراع الأخير .

تم البحث

محمد عبد الله عنان

(النقل ممنوع)

وحى القلم

مقالات الأستاذ الرافعى

مائة مقالة فى جزأين

ألح القراء على الأستاذ « مصطفى صادق الرافعى » فى جمع مقالاته ، فهيأ للطبع مائة مقالة تقع فى جزأين كبيرين ، وقد فتح باب الاشتراك إلى آخر شهر ديسمبر من هذه السنة ، وجعل قيمة الاشتراك فى الجزءين عشرين قرشاً صاغاً غير أجرة البريد وهى ثلاثة قروش لداخل القطر المصرى ، وخمسة عشر قرشاً للأقطار الأخرى كى يرسل الكتاب مسجلاً

وسيكون الثمن بعد الطبع أربعين قرشاً صاغاً ، ولا يطبع فوق عدد المشتركين إلا قليل ، وترسل قيمة الاشتراك باسم الأستاذ الرافعى فى طنطا ، والمقيمون فى القاهرة يشتركون من إدارة « مجلة الرسالة »

مذاهب الفلسفة

مذهب الذرائع

PRAGMATISM

للأستاذ زكى نجيب محمود

لقد لبثت الفلسفة دهراً طويلا تسبح فى سماء الفكر المجرد ، فلا تصغى بآذانها الى الحياة العملية التى تعج بأصدائها أرجاء الأرض جميعاً . ولا تحفل بالواقع الذى تراه الأبصار إلا قليلا ، فقد قصرت مجهودها — فى الأعم الأغلب — على جوهر الأشياء فى ذاتها ، وأخذت تسائل : ما المادة وما الروح وما مبعثهما ؟ ولكنها باءت بعد طول الكدح والعناء بالفشل والافلاس ... حتى جاء الفكر الأمريكى الحديث الذى يقدس العمل ويعقت البحث النظرى المجدب العقيم ، وأراد أن ينحو بالفكر نحواً جديداً ، فلا يكون من شأنه كنه الشىء ومصدره ، بل نتيجته وعقباه . ولقد كان أول من صاغ هذا المذهب وليام جيمس (١٨٤٢ — ١٩١٠) الذى اعترف أنه قد استمد أصوله وقواعده من أشتات قديمة . وأن له فضل الصياغة والتعبير . أما رسالته التى قصد إلى أدائها بمذهبه فهى فى أوجز عبارة : أن يتخذ الانسان من أفكاره وآرائه ذرائع يستعين بها على حفظ بقائه أولا ، ثم على السير بالحياة نحو السمو والكمال ثانيا

إنه لمن الغفلة والشطط أن نُؤتى هذه القوة العقلية فنبددها فى البحث عما وراء الطبيعة من قوى مما لا غناء فيه للانسان ولا رجاء ؛ إن العقل إنما خلق ليكون أداة للحياة ووسيلة لحفظها وكمالها ، فلينصرف الى أداء واجبه ، وليضرب فى معمعان الحياة العملية الواقعة ، فليست مهمته أن يصور بريشته عالم الغيب المجهول ، الذى لا يكاد يربطه بحياة الانسان سبب من الاسباب ، وليكن مقياسه الذى يفصل به بين الحق والباطل هو مقدرة الفكرة المعينة على إنجاز أغراض الانسان فى حياته العملية ، فان تضاربت الآراء وتعارضت ، كان أحقها وأصدقها هو أنفعها وأجداها ، ذلك الذى تنهض التجربة العملية دليلا على فائدته . وكل شىء يؤثر فى الحياة تأثيرا منتجا يجب أن يكون فى اعتبارنا هو

الحقيقة ، بغض النظر عن مطابقته أو عدم مطابقته لما يخلقه الفكر المجرد من معايير ، إذ لا يُعوَّل مذهب الذرائع إلا على النتائج وحدها ؛ فان كان الرأى مثمراً نافعاً قبلناه حقيقة ، وإلا أسقطناه من حسابنا وعدا باطلا

والواقع أن معظم الناس يتبعون فى حياتهم العلمية أصول هذا المذهب ، فهم ينتقون لأنفسهم من الآراء مايعين على تحقيق أغراضهم التى يقصدون اليها ، أو ما يعمل على رقى الانسانية وتقدم البشر بصفة عامة . خذ العقيدة فى الله مثلا ، فالأكثرية العظمى تأخذ بها لا لأن الدليل قاطع بوجوده ، (فذلك أبعد عن متناول الدهماء) ولكن لأنها ترى أن هذه العقيدة تبث فى حياة الناس روحا قوية ، وتفسح أمامهم فى الأمل الجميل الذى تزدهر به الحياة وتبتسم ، والذى لولاه لضقنا ذرعاً بفداحة عبئها.. فليس منا من لايقيس الآراء بظروف عيشه ثم يختار منها أنسبها له وأفعلها فى أداء مهمته ؛ فسلوكنا العملى هو فى الواقع الذى يوجه أفكارنا ، وليست أفكارنا هى التى توجه أعمالنا . ولقد قال موسوليني يوماً إنه يدين لوليام جيمس بكثير من آرائه السياسية ، وإنه بتأثيره لا يحتكم فى سياسته الى نظريات العقل المجرد ، إنما يسلك من السبل ما يراه أقوم وأدنى انتاجا

وإن نيتشه ليذهب فى هذا الاتجاه إلى أقصاه ، فيقرر أن الباطل إذا كان وسيلة ناجعة لحفظ الحياة كان خيرا من الحقيقة ؛ فبطلان الرأى لا يمنع قبوله مادام عاملا من عوامل بقاء الفرد وحفظ النوع ؛ فلرب أكذوبة أو أسطورة تدفع الحياة إلى الأمام بما تعجز عنه الحقيقة المجردة العارية . أنظر كيف تفعل الوطنية فى رأس الجندى فيطوح بنفسه بين براثن الموت ، ولو حكم عقله المجرد لما فعل ؛ بل انظر كم يبذل الآباء والأمهات من مجهود فى سبيل أبنائهم ، ولو استرشدوا العقل وحده لآثروا أشخاصهم ولضنوا على الأبناء بأى بذل أو عطاء ، ولكننا لحسن الطالع ذرائعيون بالفطرة ، فنعتنق من الآراء أحفظها للحياة ، ولولا ذلك لظلت الانسانية فى حيوانيتها الأولى لاتتقدم ولا تسير

ولا يقتصر الأمر فى ذلك على عامة الناس ، بل إن أرباب العلم أنفسهم ليأخذون بطائفة كبيرة من الآراء التى تعين على المضى فى بحثهم ، دون أن ينهض الدليل العقلى على صحة تلك الآراء التى اتخذوها أساساً لأبحاثهم ، فلا يدرى العلم ما الأثير وما الجاذبية وما المادة وما الطاقة وما الكهرباء ، ولكنه يفرضها لأنها تعينه على أداء مهمته ؛ وهذا بعينه ما يدعو اليه مذهب الذرائع ، فيكفى لأن تكون تلك الآراء صحيحة أنها توجهنا فى حياتنا توجيها صحيحا ، فلا يعنينا فى كثير أو قليل أن نعلم ما هى الكهرباء فى ذاتها ما دمنا نستطيع أن نستخدمها ، فحسبنا من معناها آثارها ، وليكن معنى الكهرباء هو ماتعمله وما تؤديه ، وعلى هذا النحو يمكننا أن نتخلص من أعوص المسائل الفكرية التى أرهقت الفلسفة بغير طائل ؛ فلندع جانبا كل بحث عن ما هية القوة أو ماهية المادة أو ماهية الله وما الى ذلك ، وحسبنا منها أن نبحث عن الآثار التى تنشأ عنها فى حياتنا اليومية العملية ، فان لم يكن لها آثار فيما نصادف من تجارب وجب اعتبارها ألفاظا جوفاء لا تحمل من المعنى شيئاً

وهكذا يريد مذهب الذرائع أن تكون كل فكرة وسيلة لسلوك عملى معين ، أعنى أن تكون الفكرة تصميما لعمل يقوم به الانسان ، أو لا تكون على الاطلاق ؛ فالفكرة التى تحيا فى الذهن وحده ليست جديرة بهذا الاسم ، ولا خير فيها إلا ان كانت مرشدا للانسان فى حياته وسلوكه ، فيكون مثلها مثل اللون الأحمر أو الأخضر على السكة الحديدية يراها سائق القطار فيوجهان تصرفه توجيها معينا ، أو كالعلامات للوسيقية كل قيمتها فى توجيه حركات الموسيقى ، فان لم تُفد ذلك كانت عبثا صبيانيا لا يعنى شيئاً ؛ فيجب على هذا الأساس أن تكون كل فكرة فى أذهاننا مرشداً عملياً يرسم انا سلوكنا ويضع لنا القواعد التى ينبغى أن نسير على مقتضاها فى حياتنا اليومية . أو بمعنى آخر تكون أساساً لمادة معينة . ففكرة الجاذبية مثلا معناها محصور فى تكوين عادات معينة أستعين بها فى سلوكى ، فأعرف كيف أنظم علاقاتى بالأشياء تنظيما ملائما ، فأحمل كوب الماء مثلا وفمه الى أعلى حتى لا ينسكب الماء بفعل الجاذبية ؛ وأمشى معتدل القامة خشية السقوط بفعل الجاذبية ، وأشيد مسكنى مستقيم الجدر لئلا ينهار بفعل الجاذبية ، وهلم جرا . أما إن كانت حياتى لا تتأثر بهذه الفكرة ، وكنت لا أصادف لها آثارا فيما أصادف من تجارب ، كانت فى اعتبارى وهما وخطأ ، بغض النظر عن حقيقة وجودها فى العالم الخارجى أو عدم وجودها ؛ فالرأى الصحيح هو ما ييسر لى سبيل الحياة ويعمل على توفيقها

ونجاحها ، والرأى الخاطئ هو ما يفعل عكس ذلك ، أو ما لا أرى له أثرا فى الحياة

وظاهر أن نظرية التطور تؤيد هـذا المذهب وتدعمه ، لأن العقل عندها ليس إلا عضوا كسائر الأعضاء يتذرع به الانسان فى تنازع البقاء ، وأنه لو لم يكن العقل أداة من أدوات البقاء لما وجد أصلا ؛ وإذن فالفكرة التى تنشأ فيه لا تكون صادقة بمقدار مماثلتها للحقيقة الواقعة فى الخارج ، كلا ، بل مقياس صدقها هو فى مقدرتها على إجابة الظروف المحيطة بنا على النحو الذى يمكن لنا فى البقاء . ولتوضيح ذلك نقول إنه من المعلوم أن الأشياء الخارجية فى ذاتها ليس لها ألوان ، إنما الألوان من صنع أعيننا ، ولكنى ما دمت أستطيع بفكرة اللون التى فى ذهنى (وإن لم تكن موجودة فى الخارج) أن أميز الأشياء فأعرف التفاحة الناضجة مثلا باحمرارها ؛ والفجة باخضرارها ، ففكرة اللون صحيحة صادقة . كذلك قل فى الصوت ، فليس للأصوات وجود فى الخارج ، إنما هى أمواج تقصر حينا وتطول حينا ، حتى إذا ماقرعت الأذن ، ترجمتها هذه بما نعهد من أصوات ، ولكن ماذا يعنينى من عدم مماثلة فكرة الصوت فى ذهنى للأمواج الخارجية فى الهواء ، ما دمت أعرف أن هـذا الصوت المعين يدل على سيارة قادمة فأنجو بحياتى من الخطر ؟ إن فكرة الصوت حقيقية ما دامت تعمل على نجاح الحياة وبقائها ... إن الحياة كما يعرفها سبنسر هى ملاءمة حالات الانسان الداخلية بالظروف الخارجية ، وإذن فالعقل الصالح للحياة هو ذلك الذى يدرك اختلاف الظروف الخارجية لنعدل من سلوكنا بما يلائم الموقف الجديد ، وليس يعنينا بعد ذلك فى كثير ولا قليل أن تكون الصورة الذهنية التى رسمها لنا العقل من الأشياء الخارجية ، مطابقة لأصلها أو مشوهة محرفة ، فالحقيقة العليا فى الوجود هى الاحتفاظ بالبقاء أولا ، ثم الارتفاع بالحياة نحو الكمال . فكل ما يؤدى الى ذلك هو حق صريح . وفى ذلك يقول « ديوى » العالم الامريكى المعروف : إن الفكر أداة لترقية الحياة وليس وسيلة الى معرفة الأشياء فى ذاتها . ويقول «شلر» : إن الحقيقة هى ما تخدم الانسان وحده .. وكلا الرجلين من دعاة هذا المذهب

ونحن نجمل فيما يلى ثلاثة الشروط التى يضعها مذهب الذرائع لصدق فكرة ما :

١ ـ فأولا يجب أن يكون للفكرة قيمة فورية Cash-value ، ومعناها أن الانسان يجب أن يشاهد صحة رأيه أو خطأه فى تجربته العملية ، فان جاءت هذه التجربة العملية موافقة للفكرة كانت الفكرة صحيحة وإلا فهى خاطئة

٢ ـ وثانياً أن تكون الفكرة منسجمة مع سائر أفكارى وآرائى . فلا يكفى أن تكون كل فكرة صحيحة على حدة بالنسبة لقيمتها الفورية ، ولكنها يجب كذلك ألا تناقض الأفكار الأخرى . فلا يجوز مثلا أن أفرض نوعا من الذرات فى علم الطبيعة ، ثم أفرض نوعا آخر منها فى علم الكيمياء ، حتى ولو كان كل منهما صحيحا فى ميدانه الخاص — فاذا وجدنا أمامنا فكرتين عن شىء ما ، كل منهما صحيح بالنسبة لقيمته الفورية ، وجب أن نختار إحداهما على أساس البساطة ، فأبسط الفكرتين أصحهما ؛ فمثلا لما أتى كوبرنيك برأيه الجديد عن الكون يعارض به رأى بطليموس القديم ، كانت كلتا الفكرتين صادقة إذا قيستا إلى ما ينجم عنهما من النتائج العملية فى حياة الناس ، ولكن ما دامت فكرة كوبرنيك أقل تعقيدا من الأولى ، كان لزاما أن يقع عليها اختيارنا

٣ ـ ولا بد للفكرة بعد هذا وهذا أن تطمئن لها نفس الانسان وترضى ما دام ذلك لا يتعارض مع القيمة العملية . فالعقيدة الدينية مثلا ، على الرغم من أن ليس لها قيمة فورية فى حياتنا إلا بمقدار ضئيل ، إلا أنها واجبة ، لأنها تخلع على حياتى صبغة من التفاؤل ، وهى فى الوقت نفسه تنسجم مع الأفكار الأخرى ولا تتعارض معها . ومعنى ذلك أنه اذا تساوت ظروف فكرتين ، ثم كانت إحداهما تبعث التفاؤل والأخرى تبعث التشاؤم ، كانت الأولى بالنسبة لنا أصدق وأصح . فالمؤمن والملحد كلاهما لا تؤثر عقيدته فى شؤون حياته ! ولكن الأول متفائل يرجو الآخرة ، والثانى متشائم لا يرجو شيئا ؛ إذن فالايمان أصدق من الالحاد وأحق ، لأنه أجدى على الانسان وأنفع

تلك هى الحقيقة فى عرف هذا المذهب ؛ ولقد يعترض بحق أنها قد تؤدى الى التنافر بين الناس ، والى عدم انسجامهم فى سلك المجتمع ، لأن كل فرد سينتق لنفسه الرأى الذى ينفعه بغض النظر عما يتخذه سواه من آراء ؛ وإذن ففلسفة الانسان ستعتمد على